هكذا هم .. يرتكبون الجريمة وينفونها وحين تواجههم الضحية ينحرفون بالكلام الى السلام .

« وأعطيتكم أرضا لم تتعبوا فيها . ومدنا لم تبنوها فأقمتم بها ، وكروما وزيتونا لم تغرسوها وأنتم تأكلونها » .

— وهل حدث أن زرتها بعد ذلك ؟

● حين أدرك جدي أن وجودنا في لبنان ليس سفرا ولا نزهة ، وانما هو منفى ، وان الحرب انتهت بسقوط كل شيء . وأدرك أن الكروم التي غرسها يأكلها اليهود ، وهي تتحول في يده الى بطاقة الاغاثة ، بدأ يشعر ان الخروج خطأ . صار يعي الغربة والنفي. فلجأ الى استرداد الآمال المعلقة على الجيوش بضرورة استرداد انتمائه الواقعي الى أرضه بحضور عملي . هذه الصدمة التي خلقتها خيبة الاعتماد على سلاح يحمله آخرون — وأنت أعزل الا من الحق ، خلقت « وعي التسلل » الى الارض المحتلة مهما كان الثمن والنتيجة ، من اجل تحقيق الحضور والتخلص من الاهانة . تسللنا في الليل الوعر تحت خطر الموت . لم نذهب سوية خوفا من تفكك العائلة في حالة تعرض قافلة المتسللين الى الخطر . التقينا بعد ليلتين من الزحف المضني في قرية هناك . ها نحن مرة أخرى في فلسطين . هذه هي العودة . لم نعرف أننا نستبدل اللجوء في لبنان باللجوء في الوطن . ولم نعرف ان حضورنا الجسدي في الوطن هو غياب في القانون الذي وضعه الغزاة بسرعة بالغة . سمونا «الحاضرين الغائبين» كي لا يكون لنا حق في شيء . ولكننا عرفنا أن آلافا من العائدين كانوا يوضعون — فور القاء القبض عليهم — في شاحنات عسكرية ويقذف بهم الى الحدود كما تقذف البضائع الفاسدة . وكنا نعرف ان مئات منهم قتلوا بالرصاص كي يكفوا عن محاولة التفكير بالعودة . وعرفنا ان زوج خالتي — مثلا — تسلل من لبنان منذ ذلك الحين ولم يصل حتى الآن . أيهما أكثر ايلاما : أن تكون لاجئا في ارض سواك ام أن تكون لاجئا في أرضك ؟ هذا سؤال يطرحه على الدوام القهر النفسي الذي يخلقه الواقع الاسرائيلي حين يرى المواطن العربي المحراث الاسرائيلي وهو يغوص في ترابه وجسده لاستخراج الحنطة والعنب من أجل القادمين من كل انحاء العالم ، وهو يمنع من مجرد الحج الى أرضه . هل يكون التراب قدسيا الى هذا الحد ؟ بالنسبة للفلسطيني نعم . تحاط القرى بسياج من الانظمة العسكرية يكلف اختراقها سجنا وغرامة . والقرى التي عوقبت بالهدم — وهي عشرات — اما بسبب خصوبة أرضها واما بسبب مقاومتها السيف الطالع من التوراة — يمنع أصحابها من الاقتراب منها مهما طرأت تغييرات على سياج الامن الاسرائيلي . من هنا ، كان الوصول الى القرية مستحيلا . اكتشفنا ان العودة لم تكن حلا لمسألة معيشية ولا حلا لاغتراب نفسي. ولكنها كانت تعميقا للحضور الذاتي وبديلا للنفي الاختياري ومجازفة في الاقتراب من اصول الحق والهوية . هذه هويتي وما أشد اغترابي . ولكن اغترابي هنا ايجابي لان مصدره خارج عن ارادتي ولانني حاضر . والحرقة التي تشحن علاقتي بالتربة المقدسة الممنوعة تتحول الى طاقة للرفض . وعلى الطريق من دير الاسد الى عكا تقف البروة على الهضبة اياها . لم تدلني عليها اللائحة التي تحمل اسما آخر . دلتني عليها شجرة الخروب الضخمة التي بدأت منها البحث عن أمي قبل سنين . ودلتني عليها حبات قلبي التي اكتنزت بالمطر والحنين . ليس المكان مساحة فحسب . انه حالة نفسية ايضا . ولا الشجر شجرا انه اضلاع الطفولة . كان البكاء ينهمر من اطراف اصابعي ايضا . ومرت سيارة الباص بسرعة . وعند العودة تجددت أحزان طفولتي . هذا الحلم الواقف أمامي، لماذا لا أرتديه مرة لاقول وصلت الى اللذة القاتلة؟ ان الجنود يحرسون الحلم، وسأدخله حين ينامون ؟